

المواطنة اللغوية وسؤال الانتماء

– لغة الأخر بين الفرض والرفض في خطاب مالك حداد الإبداعي –

إعداد الأستاذة الدكتورة

نصيرة غماري

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

الشيخ العلامة مبارك الميلي الجزائري





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



المواطنة اللغوية وسؤال الانتماء

- لغة الآخر بين الفرض والرفض في خطاب مالك حداد الإبداعي -

الملخص

سعينا في هذه الورقة البحثية إلى الكشف عن التأثير الحيوي للغة الأم في بناء الحس الوطني المشترك لأبنائها؛ ذلك أنها تمثل نسقا لسانيا معرفيا وعاطفيا مشتركا، يستند إلى مجموعة من التمثيلات الذهنية القبلية المخزّنة في الذاكرة منذ الطفولة، وهو ما يفسّر خصوصية نسقها الذي يشكل هوية الجماعة الثقافية المشتركة .

وتفاديا لخطاب التعميم والتجريد، حرصنا على الاستفادة من تجربة الكاتب الجزائري " مالك حدّاد" الذي سجّل في ثنايا نصوصه اغترابه اللغوي تلميحاً في نصوصه الإبداعية و تصرّيحاً في كتابه "الأصفار التي تدور حول نفسها" "Les zéros tournent en rond" (١٩٦١) فيما يشبه البوح "تفصلني اللغة الفرنسية عن وطني، أكثر مما يفصلني البحر الأبيض المتوسط عنه"؛ ذلك أنّ كتاباته الإبداعية المكتوبة بلغة المحتلّ تمثل أنموذجا ل صراع الأنا غير المستلبّة مع ذاتها، كونه دافع عن قضايا وطنه بلغة المعتدي فاضحا همجية الغرب الامبريالي تحت مسمى نشر الحضارة لقارئه الفرنسي ومعلنا لقارئه العربي المحتمل تمسّكه بمقوّمات هويته الجزائرية. وهو ما دعاه بعد تحرير الجزائر إلى إعلان "صمته الأدبي" - إراديا مشيرا بذلك القرار قضيتين هامتين:

- هل التصنيف الهوياتي للأدب تحدّد هوية كاتبه أم اللغة التي كتب بها ؟

- هل من الممكن الحديث عن "حياد اللغة" تحت شعار "لغة المحتل غنيمة حرب" غاضين الطرف عن ملابسات انتشارها و نتائجها ؟



وهما القضيتان اللتان تغيّت هذه الورقة البحثية مقاربتهما تطبيقيا.
الكلمات المفتاحية: اللغة الأم، المواطنة اللغوية، التجنيس اللغوي، الهوية الثقافية ، أدب
المقاومة عند مالك حداد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إنّ "اللغة الأم" هي ملقبة الأنا مع الآخر، فحيثما وجد المشترك القيمي بين المتخاطبين وجد التواصل اللغوي الناجح، ومرد ذلك إلى طبيعة اللغة نفسها، فهي تقوم على نسقين بنويين هما:

- نسق المعتقدات وتتمثل في ما يعدّ حقيقة غير قابلة للنقاش عند المجتمع (الدين، الإيديولوجيا).

- نسق التمثلات الذهنية التي نبنيها عن الأنا والآخر ضمن أنساق ثقافية معينة أي الصورة التي نرسمها لمن يشاركنا مقوماتنا وللآخر التي غالباً ما تعكس التمثلات الذهنية لمكونات العالم والسلوك الاجتماعي.

وفي إطار هاتين البنيتين النسقيتين تتشكّل ثقافة المجتمع التي يعرفها المفكر الجزائري "مالك بن نبي" في كتابه "مشكلة الثقافة" بأنها: "ليست علماً خاصاً لطبقة من الشعب دون أخرى، بل هي دستور تتطلبه الحياة العامة، بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي.. يجمع بين راعي الغنم والعالم، توحد بينهما مقتضيات مشتركة.."^(١) وتأسيساً عليه، قدّمها " بوصفها (جواً) يمتص الفرد عناصره تلقائياً، من ألوان وأصوات وحركات وروائح وأفكار، يتلقاها لا بوصفها (معاني) و(مفاهيم مجردة)، ولكن بوصفها صوراً مألوفة يستأنسها منذ مهده"^(٢).

نستشف من هذا المهاده النظري، أن اللغة الأم لا يمكن فصلها عن الثقافة التي تعبّر عنها، باعتبارها

(١) - مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق سورية، ط ٤ ٢٠٠٠ ص ٧٧، ٧٨.

(٢) - نفسه، ص ٩٠.

السند المادي لما تحمله من فلسفة مشتركة للجماعة وقيم روحية تؤثر في بناء هوية الفرد منذ الطفولة.

تجرّنا هذه العوامل السوسيو- ثقافية للغة إلى إثارة القضايا الآتية:

أ. مفهوم المواطنة اللغوية

ب. الكتابة بلغة الآخرين الفرض والرفض في أدب مالك حداد

ج. مقاومة المنفى اللغوي في أدب حداد

د. التجنيس اللغوي وتشظي الهوية

أ - الهوية المهيمن عليها (المستلبة) :

ب - الهوية الهجينة

ج- الهوية المقاومة للتجنيس اللغوي

الخاتمة

أ. مفهوم المواطنة اللغوية.

يتحدّد مفهوم "المواطنة اللغوية" انطلاقاً من مقتضيات الثقافة المتواشجة مع اللغة الأم، لأن إدراك العالم منذ النشأة يتمّ من خلال أنساقها البنوية، وهو ما يترتب عنه شعور بالانتماء إلى الجماعة، ومن ثمة الاندماج في الهوية الجماعية، فالفرد بوصفه فاعلاً اجتماعياً يعتمد في وعيه بذاته " هذا أنا " على عدد من مسارات التقييم الذاتية، تترجم النتائج إلى " مشاعر " أي إلى انطباعات معاشة. وتحيل هذه التقييمات دائماً إلى السياق بوصفه مرجعاً أساسياً لتقييم النشاط العام للفرد أو الجماعة .. إنّ مشاعر القيمة (تقدير الذات) و الاختلاف والاستقلالية هي تعبير عن المعاني الناتجة عن عمليات الأحكام التي يختبر بها الفاعل رغبته الاجتماعية .. وعندما

يختفي هذا السياق تتعرض الهوية للاضطرابات" (١). وهو ما يعلّل التمرّق النفسي الذي عانى منه حدّاد والذي تعبّر عنه شخصية الطبيب "صالح إيدير" في روايته "التلميذ والدرس" وفق تقنية المناجاة "يلومني المسلمون على كبريائي، فهم يفضّلون طبيبا أكثر لطفا وألفة. إنها ظاهرة جزائرية صرفة: المثقّف المسلم ينتمي إلى كلّ المجتمع، في تلك الحقبة لم يكن المثقّف حامل لواء المجموعة بل ملكا لها" (٢)

إنّ سياق القيم الجماعي هو ما حدا بهذه الشخصية الروائية إلى الاشمئزاز من سلوك أحد الخونة الذين تحالفوا مع الإدارة الفرنسية في ملفوظ سردي ذي وظيفة أيديولوجية صريحة لا تخفى عن القارئ الأوروبي: يكلمني "القايد"، قايد دوار بن يوسف، رجل ضخّم وخبيث، غير أنّه بهي، بهي كثيرا، ومن أسف أنه سافل.. لا أحبّه وهو يدري بذلك، الإهانات تنزلق عليه كما ينزلق وخز الضمير على برنوسه، لا يصافح أبدا، وإنما يحيى تحية عسكرية. يا الله كيف صنعوا بالنسور؟" وأي مصير ارتضت النسور أن تصير إليه؟ كلمني بالعربية، أحبته، عن مبدأ بالفرنسية لأنّي أتحاشى أن أشارك كأننا أحتقره بالرباط الأخوي الذي يتولّد من اللغة المشتركة" (٣).

يترتب عن هذا التصوّر للهوية المعيارية لا محالة مفهوم "المواطنة اللغوية" التي يتشكّل من خلالها إدراك مخصوص للعالم لدى الجماعة ينسجم مع المحيط الجغرافي والحضاري المتجدّر في اللغة الأمر، منشئة بذلك رباطا عاطفيا متينا يوحد بين الفرد والجماعة ويولّد شعورا بالانتماء الوطني والحضاري كقيمة ملازمة للذاكرة لا يمكن إلغاؤها إلا في حالة التذويب بالمفهوم الذي يطرحه فكر ما بعد الحداثة فيما يسمى بالهوية السيّالة وهي القضية "البؤرة" التي تطرحها أعمال

(1) -Alex Mucchielli L'Identité individuelle et les contextualisations de soi :105 -106
<https://www.cairn.info>

(2) -Malek Haddad - *L'élève et la leçon* Edition: Média-Plus Constantine 2004، p 81

(3) -Ibid p 85

مالك حداد الإبداعية - الفكرية.

II. الكتابة بلغة الآخرين والرفض في أدب مالك حداد.

تكشف أعمال مالك حداد المكتوبة بلغة المحتل الإمبريالي عن الصراع الذي أرق النخبة الجزائرية خريجة المدرسة الفرنسية، فالاندماج الثقافي الذي راهنت عليه - ولا زالت - الرأسمالية الإمبريالية عبر بوابة التجنيس اللغوي، شهد مقاومة تفاوتت درجة شدتها وتنوعت أساليبها، ومثلنا الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية؛ ذلك أنه كشف عن وجود أزمة ثقافية تجاوزت المجال الأدبي إلى البنية السوسيو ثقافية المتجدرة في عمق التاريخ؛ الأمر الذي يثير قضية تحديد جنسية الأدب المكتوب بغير اللغة الأم.

يرى الكاتب الخبير بقيم الثقافة الفرنسية من خلال إتقانه لغتها أن اللغة ليست محايدة أبداً، فهي ذات حمولة ثقافية وتاريخية تنبئ عن خبرات مستعملها وسلوكهم وتصوراتهم، وقد سخر قلمه لإثبات قناعته هذه التي نجد ما يعضدها في حوارية "باختين"؛ ذلك أن "اللغة بوصفها الوسط المشخص الحي الذي يعيش وعي فنان الكلمة فيه، لا تكون واحدة أبداً. إنما واحدة فقط بوصفها نظاماً صرفياً نحوياً لأشكال معيارية مأخوذاً بمعزل عن التأويلات والإدراكات الأيدولوجية المشخصة التي يزخر بها، وعن الصيرورة التاريخية المستمرة للغة الحية. إن الحياة الاجتماعية الحية والصيرورة التاريخية تخلقان في نطاق اللغة القومية الواحدة نظرياً، تعددية عوالم مشخصة ومنظورات أيديولوجية واجتماعية مغلقة، وضمن هذه المنظورات المختلفة تمتلئ العناصر المجردة الواحدة في اللغة بمضامين قيم ومعان مختلفة وبياقعات مختلفة"⁽¹⁾

(1) - ميخائيل بختين: الكلمة في الرواية، ت: يوسف حلاج يوسف حلاج الناشر: منشورات وزارة الثقافة - سوريا، ط

إنّ اللغة الفرنسية التي رفض " حدّاد" المفكّر الكتابة بها هي الفرنسية التي فرضها المستعمر الإمبريالي على مستعمراته لتأسيس مشروع " المركزية اللغوية" وليست الفرنسية المعبرة عن ثقافة الآخر؛ فاللغة الفرنسية في أعمال حداد هي علامة نصيّة على مركزية لغة المستعمر بتهميشه للغة الأم وحرمان أبنائها منها لدرجة أصابته باليأس الفني، ويظهر جليا هذا الموقف في تصريحه المستند إلى حجة " من فمك أدينك": " أعتقد أنه محكوم علينا باللغة الفرنسية إلى الأبد (...). يقلق أصدقاؤنا الفرنسيون بمجرد تطرقنا لمشكلة اللغة الفرنسية (...). إنهم على حق، إنها جميلة جدا، وأنا على يقين أنّ هذا القلق سيجعلهم يفهمون بشكل أفضل تعلّقنا بلغتنا الأم المفقودة والحنين إليها وأنه على الأجيال الصاعدة واجب إيجادها"⁽¹⁾

لقد نبّه الأديب في مطلع ديوانه " الشقاء في خطر" (١٩٥٦) إلى التيمة - البؤرة التي تعبّر عن منفاه في لغة المستعمر بمخاطبته صديقه الفرنسي الشاعر " لويس أراغون" Louis Aragon الذي أعرب عن " دراما اللغة" التي يعاني منها الكاتب العاجز عن التعبير بلغته الأم: " أنا الذي يغني بالفرنسية، يا صديقي الشاعر، إذا ما استهجننت لهجتي عليك أن تحاول فهمي: لقد أراد الاحتلال أن تكون لي عاهة لغوية ..ستقول: " مالِك" هذا له كلمات فرنسية. لا يهم! ف" الجزائر" يمكن أن تلفظ حتى بالصينية. نعم يا أراغون هنا "مأساة اللغة". لو كنت أحسن الغناء، لتكلّمت بالعربية"⁽²⁾.

تكمن قيمة هذا المقطع الشعري في تنبيه الكاتب قارئه بحسّه المرهف إلى أنّ " اللغة ليست وسطا محايدا ينتقل بيسر وسهولة إلى ملكية المتكلّم القصديّة لأنها مأهولة وغاصّة بمقاصد الآخرين

(1) -Malek HADDAD, Les zéros tournent en rond, Paris, Maspero, 1961, p.132

(2) -Malek Haddad: Le malheur en danger, EDITIONS BOUCHÈNE, Alger 1988, p 15- 16

وتملك شخص ما لها وإخضاعه إيّاها لمقاصده ونبراته عملية صعبة ومعقّدة" (١) ، فإن يردّد الفرنسي اسم "الجزائر" الذي تعني له مجرد أصوات دالة على رقعة جغرافية، لا يتساوى مع ترديد الجزائري لها فهي تحمل هويته و واقعه وقضاياها. وهو الأمر نفسه عندما يتكلّم بغير لغته؛ وهو يصرّح بهذا المعنى في موضع آخر من الديوان بقوله:

"في الديار، لكلمة "وطن" طعم الأسطورة" (٢)

لذا يرجع الشاعر نشاز المغنّي (الكاتب) الذي يتكرّر ذكره في الديوان إلى اغترابه اللغوي ومن هنا يتتابه الشعور بالعجز عن التعبير عن الآلام التي تلاعج قلبه.

إنّ هذه الرؤية المغلّبة للبعد العاطفي للغة انعكست على البناء الروائي في نصوص الكاتب السردية، حيث هيمنت اللغة الباطنية interior language التي تجلّت في تدخّلات السارد عبر المونولوج و الاعتراف و التعليق على سلوك الشخصيات .. وقد عمّق هذه المأساة إحساسه بأن قارئه الفعلي غريب عنه، لا يفهمه لأنه لا يقاسمه الثقافة العربية الإسلامية، بينما هو يكتب لابن بيئته الذي يعيّن في ملفوظ وصفني مفعم بالأسى والمرارة فبدت كلمات السارد تدور في فراغ:

" يا لها من حياة سخيّفة ! أنا مناجاة Je suis un monologue المؤلف كان مناجاة...
عندما لا يكتب إليك أحد. عندما لا يقرأ لك أحد.. " (٣)

وهي مأساة بدت جاثمة على وعي المؤلف بتحوّلها إلى تيمة مهيمنة أعاد صياغتها نشر سنة 1959 في روايته "سأهبك غزالة" على لسان السارد واصفا معاناة شخصية "غاردا" الألمانية التي تعجز عن التعبير بسبب جهلها للغة الفرنسية " كانت تريد أن تتكلّم، تسأل، لكن كلماتها لا تقول شيئا.

(١) - ميخائيل بختين: الكلمة في الرواية، ص ٥٢.

(2) - Malek Haddad: Le malheur en danger, p 26

(3) - Malek Haddad: Je t'offrirai une gazelle, p 43

وهنا تكمن دراما اللغة: إنه الجدار" (١)

إنّ حداد - المؤلف وإن كان متقنا للغة الفرنسية خلافا لشخصية "غاردا" التخيلية، فإنه يشبهها؛ ذلك أنّ مأساة اللغة عنده تتجاوز المعجم والنحو إلى روح اللغة وهو العجز اللغوي الذي يعاني تبعاته: "أنا عاجز عن التعبير باللغة العربية عمّا أشعر به باللغة العربية" (٢).

ولعلّ هذا العجز اللغوي هو الذي حدا بالسارد في رواية "الانطباع الأخير" (١٩٥٨) إلى التنصيص على لازمة شخصية "بوزيد" المنخرط في المقاومة الجزائرية في الملفوظ الآتي: "بوزيد الذي يردف باستمرار في نهاية الأمر: "تحيا العرب" (٣) للجهر عقب كلّ عملية عسكرية ناجحة بانتمائه إلى الحضارة العربية وإعلان رفضه لسياسة الاندماج.

وانطلاقا من هذه الرؤية المستندة إلى التجربة الذاتية، استطاعت كتاباته الإبداعية الإيديولوجية أن تؤسس لمفهوم "المواطنة اللغوية" التي تقوم على ثلاثة مرتكزات: اللغة و الأرض و الإنسان؛ حيث شغلت "نوستالجيا المكان" الحيز الأكبر من تخطيه الروائي من خلال استدعاء جغرافيا المكان (الجزائر) لاستعادة انتمائه الهوياتي.

وكانت نتيجة هذه الاستراتيجية الخطابية أن اتخذ من الكتابة فعلا مقاوما للهيمنة الثقافية التي تنشأ من سلطة اللغة المتعالية المحمّلة بالتحيزات المعرفية الامبريالية لا من منطلق التعايش الثقافي، فراح يندّد بجرائم المحتل بلغته، وأولّها سعيه إلى إفراغ شعوب المستعمرات روحيا بسلبهم هويتهم وتشويهها، وفي ذات الوقت سعى إلى التخفيف من وطأة "المنفى اللغوي" بحرصه على إحداث ثنائية غير قابلة للانفصال "اللغة المغتالة" و "الوطن المسلوب" وفق تصوير

(1) -Malek Haddad : *Je t'offrirai une gazelle* ، Média plus 2004، p 40

(2) - Revue « La nouvelle Critique» n°112، 1960، P24

(٣) - مالك حداد: الانطباع الأخير، ت السعيد بوطاجين، منشورات الاختلاف، ط ١، ٢٠٠٨، ص ٤٦.

استعاري متكرّر ممثلاً في العازف الغريب عن لحنه (الكاتب بلغة غيره) و الأغنية / النص الغربية عن مؤديها كاشفاً بذلك عن مأساة اللغة التي تعرّضت لها النخبة المثقفة:

لحظة الحفل، يحضر العازف دون عزفه

أستمع إلى أغنية لم أكتبها

لقد سرقت الأغنية

أتكلّم بكلمات تخرج من أفواه غيري

يتيم القبلات

كلّما نأى بيت الفجر

لن يغرد طائر الصفراوية

الأجنحة تحترق كلّما ابتعدت عن الشمس

.. أودّ أن أبتسم للأغنية

التي تقول رغم كل شيء

العازف ليس سعيداً" (1)

ونراه في موضع آخر من الديوان موجّهاً فعلاً إنجازياً أكثر تصريحا قوّته المتضمّنة مزدوجة:

- الأولى عتاب ولوم لوالده الذي حرص على التحاقه بالمدرسة الفرنسية - الذي كان معلّمها لها

- وحرصه على اطلاعه على أعلام الأدب والفكر الفرنسي، الأمر الذي أنتج اختلالاً بين هويته

الفردية والهوية المعيارية.

- والثانية التحسّر على عجزه عن التعبير عن فكره العربي بلغته الأم وهو ما أكّده نصوص عاضدة

(1) -Malek Haddad: Le malheur en danger, EDITIONS BOUCHÈNE, Alger 1988, p24

لهذا القصد التواصلي:

أبتاه !

لماذا حرمتني

من الموسيقى المشتهاة؟

أنظر إلى ابنك

وهو يتعلم قول هذه الكلمات

التي كنت أعرفها بلغة أخرى

عندما كنت راعيا" (١)

ومن هذه الكلمات المنغرسه في اللغة الأم التي ضيّعها، تلك التي تعبّر عن الامتلاء العاطفي والتي تحوّلت إلى مجرد أصوات خاوية لا وقع لها" فالكلمة أية كلمة .. لا يحدّدها أو يختارها المتكلم بمفرده، بل يسهم المخاطب الذي نتوجّه إليه بالكلام في تحديدها إسهما عظيمًا" (٢)

يقول:

ما أطول الليل في عيني

للأمر نقول "يا مّا" وأنا أقول **ma mère**

لقد ضيّعت برنسي، بندقيتي وقلمي

وأحمل اسما أكثر زيفا من سلوكي ..

أنت خائف أنت خائف أنت خائف

لأن ثمة رجلا يلاحقك كمرآة بشعة

(1) -Malek Haddad: Le malheur en danger، p26

(٢) - ميخائيل بختين: الكلمة في الرواية، ت: يوسف حلاج، ص ٣٥

رفاق المدرسة والشوارع والسواقي

ولكن، إني أقول لكم أنا فرنسي

أنظروا إلى لباسي ولكتتي وبيتي..

ألم نفرز كلنا في الثانوية بجوائز في اللغة الفرنسية؟

في اللغة الفرنسية، في اللغة الفرنسية، في اللغة الفرنسية.. بالفرنسية⁽¹⁾

بناء على هذا التصوّر "الباختيني" للكلمة في اللغة، فـ "كلمة" "يا مّا" هي كلمة مفعمة بالحياة بينما "ما مير" تلفظ ميتة، وهو بهذا الاستدعاء قد كشف عن صراع الأنا مع الذات، صراع تولّد من وعيه بمخاطر التجنيس اللغوي القسري الذي هو أحد ضحاياه.

إنّ المنفى اللغوي عند حدّاد هو لحظة غياب الحوار في الكلمة، أي غياب المخاطب الذي يشاركنا "الوطن" وقيمه. فما معنى أن تتواصل مع مواطنك بلغة الآخر وأن تعبّر عن عالمك الداخلي بغير لغتك الأم؟

III. مقاومة المنفى اللغوي في أدب حدّاد.

شكّلت أعمال حدّاد مقاومة سياسية - ثقافية مكّنت من إزاحة حجب لغة المنفى بما تمثله من تاريخ وثقافة وحضارة باستحضاره "وطنه" ليُسكّنه كلماته الفرنسية معلنا عن تمسّكه بهويته اللغوية - الثقافية التي حضرت موضوعا وغابت شكلا فاضحا بذلك السياسة التعليمية التي انتهجتها الكولونيالية للسيطرة على الشعوب المحتلّة بسلبهم لغتهم الأم قصد إحداث الإدماج في ثقافتها ومن ثم ضمان تبعيتها وولائها بواسطة التوظيف المكثّف للكلمات الدالة على الانتماء إلى "الوطن" كالمدرسة، والبيت، وقسنطينة وأزقتها أو إلى الثقافة الإسلامية عن طريق استثمار

(1) Malek Haddad - *L'élève et la leçon* Edition: Média-Plus Constantine 2004p27.

القوة الإنجازية للتسمية؛ ذلك أنّ الاسم كما ورد على لسان شخصية صالح إيدير في رواية "التلميذ والدرس" يحمل من الدلالات ما لا يستطيع أن تقدّمه مقاعد الدراسة^(١) ولذا يحرص في أعماله على أن يكتف من دلالته بإيراده بالعربية، سواء أكان اسم زيّ جزائري "ككلمة برنس الموظفة تداوليا لإبراز خصوصية المظهر الدال على الاختلاف والتميّز والذي يشهد عليه الملفوظ الوارد على لسان السارد في التلميذ والدرس" تتميز البرانيس عن بعضها بسمكها ووقارها، يجب أن تكون قدرأيت الهيئة البهية للبرنوس الدافئ لتكون لك فكرة تقريبية عن الرضا والبساطة و النجاح^(٢). إنّ هذا الزي بالنسبة إلى الآخر ليس إلا "فلكلورا" يثير فضوله أما بالنسبة إلى الجزائري فهو علامة مميّزة للدلالة على هويته الجزائرية و مكانته الاجتماعية و هيبته، ولذا تستعصي هذه الكلمات الثقافية بما تتضمّنه من مقتضيات عرفية على الترجمة وإلا فقدت طاقتها السوسيو ثقافية.

وهو ما يحرص الأديب على تأكيده في " الشقاء في خطر":

"لا يمكن أن نفصل الموسيقى عن الرقص

وَبُرُنُسي امتداد لبييتي أتى كان

أنا في الحقيقة التلميذ والدرس"^(٣).

أم اسم علم للدلالة على الانتماء الإسلامي، كقول البطل في رواية "التلميذ والدرس": أتساءل:

–هل كانت ستحب عمر إن كان سويديا ؟

وأبتسم قائلاً: لو كان سويديا لما سمي عمر^(٤)

(1) -Malek Haddad - *L'élève et la leçon* Edition: Média-Plus Constantine 2004p91

(2) -Ibid: P 83

(3) -Malek Haddad :Le malheur en danger ، p25

(4) -Malek Haddad - *L'élève et la leçon* Edition: Média-Plus Constantine 2004 ،p33

في إشارة إلى الانتماء العربي الإسلامي للأمة الجزائرية.

ونجد في الشقاء في خطر حضورا مكثفا لاسم أمّه " حمامة " الذي وظّف فنيا باستثمار مقوماته
الدلالية:

أمي جميلة دائما

كنت أرافقها دوما

ينادونها " حمامة "

لكن، بالعربية ذلك هو اسمها⁽¹⁾

وتكمن شعبية توظيف اسم " الحمامة " عند حداد في تعدّد دلالاته؛ فهي تحيل إلى أمّه كما رأينا،
وإلى الوطن الجزائري الأسير، وهو بهذا الفعل إنما يوسّع من مقومات هذه الكلمة لتغدو تسمية
لوطنه الجزائر؛ فالأم هي الوطن والوطن هو الأم وهي الفكرة التي يؤكد لها في روايته الأخيرة
الموسومة " رصيف الأزهار لم يعد يجيب " (١٩٦١) بعبارة " الجزائر هي أمّي " ⁽²⁾؛ حيث تعمل
ذكريات الطفولة المقاومة للنسيان على حفظ هويته الجماعية من التلاشي وإن بالحنين إلى عناصرها
وأهمّها اللغة الأم التي شكّلت وعيه القومي، وهو ما يستشفّ من دلالة العنوان، فلئن وردت هذه
الذكريات المتعلقة بالوطن مفعمة بالشقاء والبؤس جراء الاحتلال، فهي الحبل الذي يربط الجيل
المجنّس لغويا بلغته الأم وانقطاعه هو تهديد للهوية الجماعية وهي الصرخة التي يتوجّه بها
الكاتب إلى القارئ " الهوية الجزائرية في خطر " :

لأمي والحمامة

التسمية نفسها

(1) -Malek Haddad: Le malheur en danger ، p38

(2) -Malek.Haddad، Le quai aux Fleurs ne répond plus، U.G.E، Paris، 1982، P112.

تبكي أمي كل يوم
شعرها الأشيب رجال درك
إنها تعرف الأغاني

التي اعتدنا الإنصات إليها بصوت منخفض" (1)

الأمر الذي يترتب عليه، أنّ نوستالجيا المكان (الجزائر / الحمامة) في أدب حداد هو حنين إلى اللغة الأم، لأنها الملجأ الذي تسعفه به الذاكرة ليخفف من ألم النأي.

من هذا المنظور، بإمكاننا أن نعتبر مدينة "قسنطينة" في أعمال حداد شخصية تسكن وعي البطل وتوجه سلوكه، فالصراع الذي يعاينه باعته مقتضيات الفضاء المستدعي بواسطة الذاكرة فقسنطينة هي: الوطن / الأم واللغة / الأمة، ومن هنا كانت اللغة الفرنسية منفي البطل في رواياته التي ما هي إلا تسجيل للسيرة الذاتية لمأساة الكاتب.

وحرى بنا التنبيه إلى أنّ الكاتب يضيف لدلالة كلمة "الحمامة" المعجمية والعرفية التي من مقتضياتها السلم والوداعة والسكينة في موضع مغاير من الديوان دلالة سياقية ذات مقتضيات يفرضها واقع الاحتلال تدل على فعل المقاومة وما يقتضيه من قوة؛ إذ اتخذ منها اسما مستعاراً يغطي به نشاطه النضالي:

اسمي الحركي

هو الحمامة

إنه لأمر مضحك، إذن (2)

وما المضحك إلا نظام الفكر في الثقافة الغربية التي تبيح الجمع بين المتناقضات، فالتوسع

(1) -Malek Haddad: Le malheur en danger ، p57

(2)- Malek Haddad: Le malheur en danger ، p53

الإمبريالي لنهب ثروات الشعوب بالتقتيل و التشريد هو شرط وضرورية لا بد من دفعها لتحضرها، وهي ملاحظات كثيرا ما تضمّنتها نصوص الكاتب وفق استراتيجية خطابية ينتقد فيها ازدواجية المعايير في الثقافة الغربية كتعليقه في رواية "التلميذ والدرس" على أصداء الحرب العالمية الثانية في أوساط النخبة الفرنسية " في صيف ١٩٤٠ كنت طيبيا في فيلق مجنون ، لماذا سميت هذه الحرب " الحرب المضحكة؟" لم تكن أبدا كذلك ..كنت أجري عمليات نهارا وليلا بوسائل تعدّ "ثروة" وفق أسلوب السخرية في اللغة الفرنسية " (١).

وعلى هذا النحو يأتي حديثه عن اللغة الفرنسية من الخارج، إذ يسجّل ملاحظاته عنها بوصفه غريبا عنها مذكرا بذلك أنّها فرضت عليه على مستوى التعبير دون التفكير.

IV. التجنيس اللغوي وتشظي الهوية

انطلاقا مما سبق، تطرح أعمال مالك حدّاد ثلاثة نماذج تصف مآلات التجنيس اللغوي بدرجات متفاوتة، وعلى هذا الأساس قام بتسريد رؤيته الفكرية عبر مسارات صورية ألحقها بشخصيات أعماله بطريقة مضمرة ملخّصا تمثيلات الهوية التي تعرّضت لها شخصياته التي هجرت لغتها الأم من خلال ما يمكن أن نسميه بالشخصية المستلبة و الشخصية الهجينة و الشخصية المقاومة للاستلاب، وهو إذ يحذّر من التجنيس اللغوي غير الواعي لا يقصد التعددية الثقافية (أو الهجينة بتعبير إدوارد سعيد) القائمة على أساس المشاركة والاحترام حيث يتمّ قبول الآخر المختلف لا الاستحواذ عليه بصناعة تابع مستكين. نعمل على مقاربتها في العناوين الآتية:

١- الهوية المهيمن عليها (المستلبة) :

أخذ مالك حدّاد من شخصياته الروائية استراتيجية يسرّد من خلالها مشروعه التقويضي للسياسة التعليمية الكولونيالية؛ حيث راهن المحتل على تفكيك منظومة الأنساق الثقافية لمستعمراته

بتهميش اللغة الأم عبر استبعادها وتعويضها بلغة المركز المهيمن (الفرنسية) لتقبل الاندماج طوعيا بعد أن تصنع نخبة مثقفة تنطق بلسان غير لسانها لضمان تبعيتها غير المشروطة. وعالجها الكاتب في روايات "التلميذ والدرس" ورواية "الانطباع الأخير" و"رصيف الأزهار لا يجيب" من خلال عرضه للزواج المختلط على لسان شخصية الأم "مّا مسعودة" (وهي تُحتضر) مخاطبة ابنها المقيم في فرنسا والمتزوج من فرنسية بعد أن علمت بحملها: أنتظر صبيا؟ سمّه فرانسوا وسيذهب إلى المدرسة في باريس. كانت تلك آخر كلماتها نظقتها بالفرنسية: فهمت سمون . ثمّة كلمات ثقيلة جدا^(١)

ويلح الكاتب محدّرا من انعكاسات هذا الزواج على الهوية الجماعية بطريقة فنيّة في ملفوظ كنائي: "مّا مسعودة تمشي على الجسر، إنها خفيفة مثل فكرة. إنها تصرخ متطلّعة إلى الهوة: لن تتزوّج فرنسية أبدا، ويؤكّد الصدى: فرنسية أبدا"^(٢) وبإسقاط الفعل الترجيبي "النهي" من الوصيّة في ترجيع الصدى يستشرف الكاتب وقوع المحذور وفق استباق مضمّر للنتائج . وقد أوما السارد إلى هذا المحذور الذي لا يخرج عن كونه تمزّقا هوياتيا بوصفه "جريمة" في موضع آخر ضمن تقنية "الوقفه" قائلا: "هذه الامتزازات تخفي جرائم في نهاية الأمر، لهذا استقرّ "إدير" في فرنسا بعد إتمام دراسته. إنّ حلاّ سهلا يؤدي دائما إلى حلّ آخر أسهل"^(٣) وأول هذه الجرائم كما خطّبتها الرواية مفارقة الوطن - تحت أيّ تعليل - الذي يفتح الباب أمام تنازلات يستدعي بعضها بعضها وهي ما يتمثله البرنامج السردى لشخصية "الشريف"؛ الذي فشل في فعله الإقناعي لزوجته ليلي أخت "سعيد" لتهاجر معه إلى فرنسا للهروب من مآسي

(١) - مالك حداد: الانطباع الأخير، ص ٢٧

(٢) - نفسه ص ٢٨

(٣) - مالك حداد: الانطباع الأخير، ص ٢٥

الحرب والعيش في سلام طالبا من أخيها مساعدته في إقناعها " شريف مجرد قمادات، كان سعيد مسرورا بأخته التي رفضت الذهاب. في كلّ ذهاب هناك شيء من الهروب الذي يشبه التخلي عن الواجب.. و بماذا يجيب هذا الشريف؟ أي شيء مفهوم نقوله له؟ لا يوجد نغم بالنسبة إليه لن تكون سوى ألفاظ. كل سيء مجرد مجرد ألفاظ" (١).

٢- الهوية الهجينة

تجسّد شخصية ابنة السارد " فضيلة " في رواية " التلميذ والدرس " التشوّه الهوياتي الذي طال الفرد الجزائري نتيجة " التهجين عبر الثقافي " و أبرزه فقدان اللغة الأم؛ ذلك أنّ السرد يقدّمها بوصفها ذاتا مضطربة على الصعيد العاطفي - العائلي؛ فعلاقتها مع والدها لا تعدو أن تكون علاقة بيولوجية لا حوار فيها ولا توجيه ولا سلطة- بسبب انفصاله عن أمّها - رغم ما يكنّه لها من حب ، لذا أظهرها السرد متمردة على قيم الثقافة الأم ، إلا أنها ذات نزعة وطنية تعمل مع رفيقها الجزائري "عمر" الذي تربطها به علاقة غير شرعية في صفوف المقاومة السياسية. والإشكال الذي تعالجه هذه الشخصية هو الازدواجية غير المتناغمة التي يعيشها هذا النمط من الشخصية بين الإحساس بالانتماء الجغرافي إلى الأرض الأم ومن ثم الوعي بوجود تحريرها والسعي من أجل ذلك، وهو ما سماه السارد بـ "الحب السياسي" (٢) ؛ و اللانتماء الثقافي الذي تحقق وتكرس بفعل تبني لغة الآخر و ثقافته ولئن كان الأب يعي الأزمة الثقافية التي يعيشها وتورقه طوال الوقت حيث يشهد تمزقا هوياتيا عميقا يفصل عالمه الداخلي على مستوى الذاكرة والحياة الواقعية، نستدلّ عليها بثلاثة ملفوظات سردية:

- القوة الإنجازية للملفوظ الأول هو استهجان تدخين المرأة لمنافاته للأعراف الجزائرية:

(١) - مالك حداد: الانطباع الأخير، ص ٧٦.

" عندما عدت، كانت فضيلة تدخن لا أحب أن تدخن المرأة، وخاصة لما تكون جزائرية " (١) غير أنه بدا متجرّدا من سلطنة الأبوية بل غير مكترث على مستوى السلوك بتطبّعه بقيم الثقافة الغربية على أرض تحكمها قوانين فرنسية، فاكتمى بالمونوج في حوار داخلي يدلّ على هيمنة سلطة الواقع.

- القوة الإنجازية المضمرة للملفوظ الثاني هو الاعتزاز بقيم الثقافة العربية - الجماعية وافتقاده إيّاها فنرى السارد يرسل بعض التعليقات عن حشمة المرأة الجزائرية كما استقرّت في ذاكرته بين الحين والآخر: " ما خديجة كانت تنسحب كلّما رأت السيّد "بلحسن" إنه حياء امرأة عربية" (٢) غير أن ابنته غير مدرّكة لأزمتهما فعدت هويتها مبتورة لا ترى فيها إلا الرقعة الجغرافية.

- القوة الإنجازية المضمرة للملفوظ الثالث هو الاستلاب الثقافي الذي يمّس الفرد جراء التجنيس اللغوي، حيث تفقد الكلمة تأثيرها ووقعها إذا سكبت في غير وعائها: " كنت أجهل أنه توجد أيام اثنين وثلاثاء وخميس يسرّ الطالب فيها أن يفّر من المدرسة ودروس حساب ودروس أخلاق أبلد من درس ديني يعطى بلغة أجنبية" (٣)

تأسيسا على ما تقدّم، يكون حداد قد طرح إشكالية مفادها: هل الكتابة بلغة الآخر تعايش ثقافي أم أزمة ثقافية؟ وهو ما نجد إجابة عنه في النوع الثالث من الشخصيات التي عالجتها أعمال الكاتب.

٣ - الهوية المقاومة للتجنيس اللغوي: تمثل شخصية "سعيد" في رواية الانطباع الأخير (١٩٦١) بداية التآزم الهوياتي المعلن في كتابات حداد، بل إنها تتماهى مع الكاتب من خلال تدخلات السارد ذات الوظيفة الإيديولوجية الواضحة من خلال رمزية "الجسر" الموظفة في بنية السرد؛ فالجسر

(1) Malek Haddad - *L'élève et la leçon* Edition: Média-Plus Constantine 2004, p 16.

(٢) - مالك حداد الانطباع الأخير ص ١٢٩.

(٣) - مالك حداد الانطباع الأخير ص ١٣٣.

الذي بناه سعيد ليربط بين منطقتين في مدينة "قسنطينة" تحت إشراف الإدارة الفرنسية والذي أمره المجاهدون بتدميره، هو التجنيس اللغوي الذي سعى المحتل إلى إقامته بفرنسة التعليم ومنع العربية لا لربط حضارتين مختلفتين على أساس احترام الآخر المختلف وإنما لإنشاء علاقة غير متكافئة أساسها الإذعان للتفوق المادي - وهو ما نجحت فيه مع نخبة مثقفة نادت بالاندماج بفرنسا - جسر أنشأه جيل الكاتب ووجب تدميره درءاً للمفاسد كما يصفه الملفوظ السردي: "يجب أن يزول الجيل الانتقالي، الجيل صنع الجسر والجسر وجب أن يخرب . كان جيل سعيد صانعي الجسور، جسور الإرادة القويّة، بيد أنّ الجسور وجب أن تخرب . يجب أن يموت أناس، أن يزول جيل . هكذا يصبح الموت طريقة لقلب الصفحة، طريقة لكتابة انطباعك الأخير.. عندما تقلّب

الصفحة لا تنسى المدرس الذي قدم من "بروطان" والإعلان عن حقوق الإنسان" (١)

وللدلالة الاسم "سعيد" قوّة إنجازية تحيل إلى استقرار الحالة النفسية بعد التشتت والضياع، جراء اتخاذه موقفا وطنيا حاسما تغلب فيه حسّ الوطني على المنفعة الذاتية أي انتصار الهوية الجماعية على رغبات الهوية الفردية المتشظية بفعل التجنيس اللغوي ومن ثمّ الثقافي مستعيدا بهذا القرار أثرانه وهو ما يكشفه الحوار الذي يجمعه بصديقه الفرنسي:

- ولكنكم أنتم يا سعيد، أنتم لستم كالأخرين. معكم يمكن أن نتحدّث، يمكن أن ندعوكم، يمكن الحديث معكم عن روني شار وبيتهوفن. لستم كالأخرين. نخاطبكم بالضمير "أنتم"، لا نقطّب وجوهنا تقرّزا. يمكن أن نتفاهم.

- خطأ! إنني كالأخرين. إنني مع الآخرين. أفهم خبزهم وبنديقيتهم، أتحدّث عن أمي كما يتحدّثون عن أمهم. أقبل أنبائي كما يقبلون أبناءهم. إنني كالأخرين. كلّ شيء يربطني بهم، كل

(١) مالك حداد: الانطباع الأخير، ص ١٠٦ .

شيء يجعلني مماثلا لهم . أنا لست سوى معهم . اختارت الشجرة غابتها، العلامة الموسيقية سيمفونيتها، الوحيدون الذين أستطيع أن أفهمهم فعلا، هم أهلي.. " (١)

إنّ الجسر اللغوي الذي يصل المحنّس لغويا بثقافة الآخر شكّل هاجسا أرقّ شخصياته المثقفة، فهو تحوّل إلى مأساة لم تستطع التعايش معها خاصة أنّها تحمّل نفسها عبء هذا التشظي المفروض عليها الذي لا يفتأ يتعمّق ممثلا في جيل "فضيلة" في التلميذ والدرس ولذا وجب تدارك الأمر بالتضحية الطوعية، وبالصمت ما دام الكلام باللغة الأم غير متاح كما ورد في تعليق السارد "جيل ينظر إلى جيل في الحوار المستحيل للتحدي. جيل يكلمّ جيلا . جيل يصمت ولا يمكنه إلا أن يصمت. الأحداث تتجاوزه. جيل يحاكم جيلا ويدينه. إني أعني ذلك جيدا" (٢)

يكشف لنا هذا الملفوظ السردي أنّ الشخصيات المحورية في أعمال حدّاد ما هي إلا صدى لأفكاره ومعاناته المحاطة بالصمت حتى وهي تتكلم، إنّّه جزائري لم يبع قضيته أثناء الاحتلال وقد صدحت بهذا الاختيار نصوصه، فانتماؤه إلى الجماعة لم يتوقّف بتغيّر لسانه: "أنا أعلم أنّ الخيانة هي في التخلّي عن الجماعة، إنها طلاق وأنا لم أطلق" (٣).

لقد أسهم قلمه الفرنسي في التعريف بالقضية الجزائرية وبالثقافة العربية وكان فعله تعبير عن اعترازه بانتمائه الحضاري؛ وهذا تحديدا ما خلق صراعا بين الذاكرة واللغة المستعارة (الأمر الذي يعلّل تركيزه على دور المدرسة في تشكيل النخبة المثقفة من خلال استدعاء ذكريات الدراسة) في كلّ أعماله: " في "بو طالب" كانت بدايتي، أشعر بأني أكذب لشدة بعد الذكرى ،

(١) - مالك حدّاد: الانطباع الأخير، ص ٨٤.

(2)- Malek Haddad - *L'élève et la leçon* Edition: Média-Plus Constantine 2004 ،47 - 48p.

(٣) - مالك حدّاد: الانطباع الأخير، ص ١٢٢.

أتذكر طائر اللقلق خاصة ومدرسة بيضاء . هناك دائما مدرسة بين ماضي وبيني .. لن أزرع شجرة تين عمرها قرنا إلا إذا استعدت ابنتي وحفيدي هو من يعيد الغابات وينميها .. بو طالب ما هي إلا جزيرة في ذاكرتي .. الماضي يرفضني والمستقبل يدينني" (١)

ولذا نراه بعد الاستقلال نفذ وصيته؛ التي وردت في الشقاء في خطر " أنت تكتب لأنك تحب، و إذا لم تعد قادرا على الحب، فضع قلمك" (٢) إذ لم يعد هناك دافع للاستمرار في الكتابة بلغة فرضت عليه رغم إعجابه بها ما دام قد رجع إلى أحضان الوطن معلنا صمته الأدبي في كتابه: "الأصفار تدور حول نفسها": " اللغة الفرنسية هي منفاي، كما أن اللغة الفرنسية هي منفي قرائي. الصمت ليس انتحارا مفروضا على الطريقة اليابانية hara-kiri .. أنا أو من بالمواقف المتطرفة . لقد قررت أن أصمت ولا أشعر بأي ندم أو مرارة وأنا أضع قلمي" (٣) لقد وضع قلمه كما وضع المجاهد بندقيته .

فالصمت هو الامتناع عن الكتابة لتجاوز الخواء الثقافي الذي يستشعره في لغة الآخر؛ ذلك أنه لم يستطع إجبار نفسه على التعبير عن معاني يتمثلها ويعجز عن تمثيلها بلغة هو غريب عنها.

" آه ! لو كنت تعرفين قراءة ما بين سطور صمتي" (٤)

(1) - Malek Haddad - *L'élève et la leçon* Edition: Média-Plus Constantine 2004، p 55-56

(2) -Malek Haddad: *Le malheur en danger*، p13

(3) -Malek Haddad: *Les zéros tournent en rond*، Paris، François Maspero، 1961، p. 21

(4) -Malek Haddad - *L'élève et la leçon*، p 63

الخاتمة:

نخلص مما سبق إلى أن الثقافة باعتبارها فلسفة وقيم خلقية فردية واجتماعية تؤثر في تكوين وتنشئة الفرد منذ الطفولة متداخلة مع اللغة الأم، بحيث تعبّر عن سلوكه وخبراته الحياتية وهو ما يبني الهوية الجماعية التي تشكّل حصن الأمة.

إنّ أدب مالك حداد المكتوب باللغة الفرنسية يندرج ضمن أدب المقاومة، غير أنّ ما يميّزه عن غيره من الأدباء الجزائريين الذين يكتبون باللغة الفرنسية هو تطرّفه في رفض السياسة التعليمية الفرنسية التي فرضت لغتها الوافدة على الجيل الأول من المتمدرسين الجزائريين وتعمّقت مع الجيل الثاني بمنع اللغة الأم على أبنائها ومن ثمّ حرمانهم من الاتصال بالحضارة العربية الإسلامية.

ومن هذا المنظور، يجب اعتبار صمته الأدبي بعد استقلال وطنه الجزائر موقفا صريحا يعلن من خلاله تضامنه مع لغته الأم "العربية" لتستعيد مكانتها وبريقها. فكان سكوته هذا صرخة أطلقها ليحدّر من التشطي الهوياتي الذي ينتج عن هيمنة اللغة الفرنسية فلا تعايش حضاري في ظلّ غياب الهوية اللغوية وقد أكّد التصوّر ما بعد الحداثي هواجسه بالترويج إلى الهوية السائلة Liquid identity التي تعمل على تذويب الهويات كيفما كانت عبر بوابة فتنة العولمة.

قائمة المصادر والمراجع

مصادر البحث:

- 1- Malek Haddad : L'élève et la leçon: Edition، Média-Plus Constantine 2004
- 2- La dernière impression، 6ditions Bouchene، Alger، مالك حداد : الانطباع الأخير ، ت السعيد بوطاجين، منشورات الاختلاف، ط ١، ١٩٨٩
- 3- :Le quai aux Fleurs ne répond plus، U.G.E، Paris، 1982
- 4- : Je t'offrirai une gazelle، Média plus 2004
- 5- : Le malheur en danger ،EDITIONS BOUCHÈNE، Alger 1988
- 6- : Les zéros tournent en rond، Paris، Maspero، 1961

المراجع

- ١ . مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق سورية، ط ٤ ٢٠٠٠
- ٢ . ميخائيل بختين: الكلمة في الرواية، ت: يوسف حلاج يوسف حلاج الناشر: منشورات وزارة الثقافة - سوريا، ط ١٩٨٨

1. Alex Mucchielli L'Identité individuelle et les contextualisations de soi :105 -106
<https://www.cairn.info>
2. Revue « La nouvelle Critique، n°112، 1960